

أفاق التقدم العلمي في المصر المملوكي

بقلم أ. د. فايد حماد عاشور

رئيس توجيه الاجتماعيات

إن أولى آيات القرآن الكريم تحض على التعليم «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم»^(١) ولا يزال الإسلام يحض على العلم ويدعو إليه في آيات كثيرة «الرحمن علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان»^(٢) وفي آية أخرى يقول رب العالمين في كتابه العزيز «وقل رب زدني علماً»^(٣). ولقد اهتم الإسلام بالعلماء ورفع من قدرهم ويفرق في الحكم بينهم وبين العامة من الناس فيقول «هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون»^(٤) ذلك أنه كلما ازداد المرء علماً ازداد

قرباً إلى الله تعالى وخشية له، والقرآن الكريم يشير إلى ذلك المعنى بقوله : «إنما يخشى الله من عباده العلماء»^(٥) فالعلماء أكثر الناس فهماً للدين وأكثر وعياً لمقاصد

القرآن الكريم وأكثر إدراكاً لبديع قدرة الله عز وجل «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون»^(٦) وفي نطاق دفع العقل الإنساني إلى التفكير يقول تبارك وتعالى : «ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون»^(٧) وقوله تعالى «إن في خلق السماوات

والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقنا عذاب النار»^(٨) وعلى هذا فإن التفكير فريضة إسلامية ومن ثم يخاطب الإسلام العقل ويحضه على التفكير في خلق الكون والوصول - ما استطاع - إلى شواطئ المعرفة، ومراسي العلم، فيقول القرآن الكريم «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما



أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون»^(٩)

وإذا كانت الحضارة نبت العلم، والعلم هدف ومنالة وغاية يسعى المسلم إليها جميعاً من واقع الإسلام الذي آمن به وتعاليم رسوله ﷺ الذي اهتدى به، فليس ثمة شك في أن العلم يدفع إلى الخلق والإبداع والتفكير والتدبر، وكل من الخلق والإبداع والتدبر ينبت حضارة وينشئ

معرفة^(١٠) والإسلام جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة كما جعل إعداد القوة الإسلامية الذاتية فرضاً لا تهاون فيه وإعداد القوة التي ترهب الأعداء الظاهرين وغير الظاهرين المقصود بها هنا القوة المادية المحسوسة التي يراها العدو، وإعداد القوة التي ينبغي لها أن تكون مرهبة للأعداء لا تتم إلا من خلال العلم وطرق أبوابه وكل المجالات ومن ثم فهم المسلمون إسلامهم بهذا المعنى الواسع وأقاموا حضارة رائعة في كل المجالات العلمية والعمرانية والاقتصادية

فهم المسلمون الإسلام بمعناه الواسع ورأوا أن إعداد القوة لإرهاب الأعداء الظاهرين وغير الظاهرين لا يتم إلا من خلال العلم

العالم الإسلامي وظهر في عصر السلطان الظاهر بعض أعمال الأدب والتاريخ أشهرهم محيي الدين بن عبد الظاهر وابن فلكان وجمال الدين بن واصل وهم من أصحاب المؤلفات الهامة. ومن الأمثلة على اجتهاد السلاطين المماليك السلطان الغوري الذي اهتم بعقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة مرة أو مرتين أو أكثر كل أسبوع وقد بحثت في تلك المجالس مختلف المسائل والمشاكل العلمية

والدينية التي تناقش فيها الحاضرون من كبار العلماء والفقهاء كذلك وجد من يهتمون بالعلم والعلماء أكثر من الأمراء والأثرياء وأهل الدين وأنفقوا كثيراً من وقتهم ومالهم في سبيل العلم. المدارس :

اعتبر المسلمون بناء المدارس من أعمال البر والتقوى ودليل الإيمان كيف لا وهم يؤمنون أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ومن ثم نرى رعاية سلاطين المماليك للنشاط العلمي وإنشاء المدارس علاوة على الاهتمام بالمؤسسات الأخرى التي قامت أحياناً بوظيفة المدارس مثل المساجد

والعسكرية والسياسية وأقاموا مجتمعاً راقياً في فكره وأسلوب حياته لأنه يستند إلى الإسلام ونخص هنا العصر المملوكي الذي امتد ما بين ١٢٥٠ - ١٥١٧م حيث النشاط العلمي والجهادي وازدهار - العمران ووفرة العلماء ولقد زار مصر سنة ٧٣٧هـ الرحالة البلوي المغربي فابدى إعجابه الشديد بالنشاط العلمي في البلاد وقال إن مصر «منبع العلماء». والحق أن مصر أصبحت على عصر سلاطين المماليك ميداناً لنشاط علمي ونهضة شاملة يدل عليها ذلك

التراث الفخم من موسوعات أدبية وكتب تاريخية ومؤلفات جغرافية وأخرى في العلوم الدينية.

والواقع أنه ما كان لهذا النشاط العلمي في عصر الدولة المملوكية أن يزدهر لولا تشجيع بعض سلاطين المماليك للعلم والعلماء استجابة للدين الإسلامي العظيم وقد وصف المؤرخ أبو المحاسن بن ثغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة السلطان

الظاهر بيبرس بأنه «كان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً ويقول سماع التاريخ أعظم من التجارب»^(١) وقد عاد الجامع الأزهر في عهد السلطان الظاهر بيبرس إلى سابق عهده مقصداً لطلاب العلم في مختلف أنحاء

تشجيع سلاطين المماليك للعلم كان استجابة للدين الإسلامي العظيم

والزوايا والخانقاه والرباطات والمعروف أن سلاطين المماليك والكثيرين من الأمراء أكثروا من إنشاء المدارس إظهاراً لشعور التقوى والزلفى إلى الله تعالى ولم تكن

جميع المدارس التي شيدها سلاطين المماليك في المدن الكبرى وإنما أقاموا المدارس في القرى والريف مثل مدرسة سرياقوس التي أنشأها السلطان برسباي ولم يقتصر اهتمام المماليك في إنشاء المدارس على مصر فقط إنما تجاوزها إلى مختلف أنحاء دولتهم الواسعة ومن ذلك أن السلطان قايتباي أنشأ مدارس

عديدة في مصر والشام والحجاز كما أنشأ السلطان الغوري مدرسة في مكة المكرمة وقد ساهم الأمراء كذلك في إنشاء المدارس تقرباً إلى الله تعالى ومن أشهر المدارس التي أقامها أمراء المماليك المدرسة الجمالية أو المحمودية التي بناها سنة ١٤٠٨م الأمير جمال الدين محمود وهو أحد أمراء السلاطين فرج بن برقوق وقد أشاد المؤرخ الكبير المقرئ بهذه المدرسة فقال إنها «من أحسن مدارس مصر»^(١٢) وجرت العادة عند الانتهاء من إنشاء مدرسة في عصر الدولة الإسلامية المملوكية أن يحتفل بافتتاحها

احتفالاً كبيراً يحضره السلطان والأمراء والفقهاء والقضاة والأعيان ويمد سماط فاخر في صحن المدرسة به ألوان الأطعمة والحلوى والفواكه وبعد أن يخلع السلطان

على كل من أسهم في بناء المدرسة من المعلمين والبنائين والمهندسين يعين للمدرسة موظفيها من المدرسين والفقهاء والمؤذنين والقراء والفراشين وغيرهم.

وكانت وظيفة المدرس جليلة القدر يخلع السلطان على صاحبها ويكتب له توثيقاً من ديوان الإنشاء يختلف باختلاف



المادة التي يدرسها المدرس، في هذا التوقيع يقدم السلطان النصيح للمدرس بأن يظهر مكنون علمه للطلاب ويقبل على الدرس وهو طلق الوجه منشرح الصدر ليستميل إليه طلبته ويربيهم كما يربي الوالد ولده، كذلك طلب من المدرس أن ينظر في طلبته ويحثهم كل وقت على الاشتغال بالعلم.

وجرت العادة على تعيين معيد أو أكثر لكل مدرس ليعيد للطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه ويحسنوه كما يشرح لهم ما يحتاج إلى شرح.

ومن المدارس العديدة التي أسسها سلاطين

الممالك المدرسة الظاهرية نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس الذي وضع أساسها سنة ١٢٦١م والمدرسة الناصرية التي شيدها السلطان الناصر محمد عام ١٣٠٣م/ ٧٠٣هـ وفيما يلي وصف لهذه المدرسة كما جاء في ملحق رقم ١٧ بكتاب السلوك الجزء الأول مضافاً إليها الوقف الذي يغطي نفقاتها كاملة وطريقة إدارتها على النحو التالي:

ذكر الجلوس بالمدرسة الناصرية والقبعة، وأوقاف ذلك وشروطه. وفي هذه السنة في أولها فتحت المدرسة الناصرية والقبعة، وأوقاف ذلك وشروطه. وفي هذه في أولها فتحت المدرسة الناصرية والقبعة الشريفة، وانتصب المدرسون والفقهاء بالمدرسة والقراء بالقبعة، وجلس شيخ الحديث برواق القبعة. وفُوض التدريس بالمدرسة لمن نذكرهم، وهم: قاضي القضاة زين الدين علي المالكي، والطائفة المالكية جلسوا في الإيوان القبلي بالمدرسة، بمقتضى شرط الواقف لهم؛ وقاضى القضاة شمس الدين أحمد السروجي الحنفي، والطائفة الحنفية جلسوا في الإيوان الغربي؛ وقاضى القضاة شرف الدين عبدالغني الحراني الحنبلي، والطائفة الحنابلة بالإيوان الشرقي. وكان جلوسهما بهذين الإيوانين بخلاف شرط الواقف، فإنه جعل الإيوان الشرقي للحنفية، والإيوان الغربي للحنابلة، فجلسا على عكس الشرط، ولعل ذلك عن غير قصد. ثم انتقص ذلك على ما ذكره، وجلست كل طائفة في المكان المعين لها بشرط الواقف؛ وجلس القاضي صدر الدين محمد بن الشيخ زين الدين المعروف بابن المرحل، والطائفة الشافعية، بالإيوان البحري؛ وحضر درسه الأمير عز الدين إيبك

البغدادي، وزير الدولة ومدبرها. وهذه المدرسة والقبعة كان أنشأهما الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري في أيام سلطنته، واشترى أرضهما، وكانت داراً تعرف بالرشيدي، وحماماً ومساكن، فابتاع ذلك وهدمه وأنشأ قبعة ومدرسة؛ وكملت عمارة القبعة، وبُني من المدرسة إيوانها القبلي وبعض ما يليه، ثم خلع الملك العادل من السلطنة كما تقدم، فخلقت المدرسة وبطلت عمارتها.

فلما عاد السلطان الملك الناصر (محمد) إلى السلطنة ثانياً، في سنة ثمان وتسعين وستمائة، حسن له قاضي القضاة زين الدين المالكي ابتياعها وتكملة عمارتها وإتقانها، فابتاعها وعوض الملك العادل (كتبغا) عن ثمنها حصصاً من ضياع من أملاكه بدمشق، وحصل الشروع في عمارتها، وعين له من الأملاك السلطانية، التي ورثها السلطان عن والده وأخوته والمبتاعة من أجر أملاكه، وكانت أجرتها في كل شهر بالقاهرة وظواهرها خاصة تزيد على ثمانية ألف درهم.

ولما عزم السلطان على الحركة إلى الشام، للقاء غازان وضربه عند طروقة الشام، وقَفَ القبعة والمدرسة، ووقف على مصالحهما (من أملاكه) ما يذكر، وذلك في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وتسعين وستمائة، قبل استقلال ركابه الشريف إلى الشام بيومين.

وكان قاضي القضاة زين الدين قد رتب كتاب وقف جعل النظر فيه على الوقف والمدرسة وألقبة لنفسه أيام حياته، ثم من بعده للأرشد فالأرشد من أولاده وأولادهم وذريتهم، ثم من بعدهم لقاضي القضاة المالكي؛ وشرط أيضاً التدريس في إيوان

المالكية لنفسه، ولأولاده من بعده، وكُتب الكتاب ووقع الإشهاد على السلطان فيها بذلك.

فضاق شهاب الدين أحمد ابن عبادة من ذلك - وكان قاضي القضاة زين قد استخدمه مُشرفاً بالديوان الناصري، وتقدم عند السلطان - وأوضح للسلطان أمر الوقف وبينه له وقال: "إن قاضي القضاة إنما جعل هذا لنفسه ولأولاده وذريته، ولم يجعل للسلطان ولا لعتقائه في ذلك شيئاً" وحسن للسلطان تغيير كتاب الوقف، وأن يجعل

النظر فيه لعتيقه الطواشي شجاع الدين عنبر اللالا، ومن بعده للأمثل فالأمثل من عتقاء الواقف، ثم عتقاء الواقف، ثم عتقاء والده. ففعل (السلطان الناصر) ذلك، وجعل له أن يتناول من ريع الوقوف المذكور في كل شهر ثلاثمائة درهم نقرة مدة حياته، وجعل لمن يؤول النظر إليه بعده في كل شهر مائتي درهم، وأبطل الكتاب الأول وثبت الكتاب الثاني.

وسالت شهاب الدين بن عبادة عن السبب الحامل له على إخراج النظر عن قاضي القضاة ونقله إلى غيره، فقال: «إنه جعل النظر والتدريس لنفسه ولأولاده من بعده، وما جعل لي منه نصيباً، ولا

يفطي الوقف

نفقات المدارس

كاملة بما في

ذلك إدارتها

وكان القضاة

والشيوخ

يدرسون بها

ذكر لي وظيفة. وكنت طلبت منه أن يجعلني مشارفاً بشرط الواقف، فشج علي بذلك، فأخرجت النظر عنه وعن ذريته».

وقد رأيت أن أذكر ملخص ما تضمنه كتاب وقف القبة والمدرسة، وما رتب فيهما فيه من أرباب الوظائف، وما شرط لهم من المعلوم، وما شرط عليهم، والجهات الموقوفة على ذلك، وما يتحصل من أجورها في كل شهر، وألخص المقاصد فيه مع عدم الإخلال بها، ولا أحذف منها إلا حشو الكتاب الذي لا يخل حذفه بالمعنى، وأورد ذلك بمقتضى كتاب

الوقف، وارتفاع الجهات الموقوفة بمقتضى حساب المباشرين.

والذي حملني على ذلك، وأوجب لي إirاده في هذا الكتاب، مع ما فيه من الإطالة والخروج عن القاعدة التاريخية، ما وقع في مثل ذلك من إخفاء كتب الأوقاف إذا تناول عليها المدد، وبعد العهد بالأوقاف والشروط، وتداولها النظار والمباشرون، واستولوا على الأوقاف، وغيروا المصارف عن شروط الواقفين، ونسبوها إلى العادة، فيخرج (الأمر) عن شرط الواقف إلى رأي المباشرين وعادة الصرف.

ثم بعثني على ذلك، وأكده عندي، ما وقع في هذه المدرسة المباركة في ابتداء

الظاهر بيبس:

سماع التاريخ

أعظم من

التجارب

أمرها مع بقاء واقفها خلد الله
سلطانها، وتوفر الداعي على
ملاحظتها، ونصب قضاة
القضاة وأعيان العلماء
ونبلاء الفقهاء في دروسها،
ومع ذلك كله حصل الخروج
فيها عن شرط واقفها في كثير
من أحوالها، وأحصر المرتب
عن شرط الواقف مع توفر
المال وزيادة عن كفاية
الشروط. وإنما ظهر ذلك عند
وفاة ناظرها الطواشي شجاع
الدين في سنة أربع وعشرين
وسبعمائة، وظهور كتاب
الوقف؛ ولعل الناظر المذكور
لم يفعل ذلك عن علم وإطلاع
(على الشروط، وإنما فعله
عن) إغفال وإهمال وجهل

وعدم احتفال بإمعان النظر فيما أسند إليه
واعتمد فيه عليه.

فلما أسند النظر إلى أهله، وانتهى إلى من
يتحرى الصواب في قوله وفعله، وأجرى
الأمور فيها على شرط واقفها، وصرف
أموالها في وجوه مصارفها؛ وما عدل عن
شرط الواقف ولا خرج، ولا اعتمد ما يترتب
عليه فيه إذا خرج. والذي تضمنه كتاب
الوقف الثاني الصادر عن مولانا السلطان

الملك الناصر، ناصر الدنيا
والدين أبي المعالي محمد بن
السلطان الشهيد الملك
المنصور سيف الدنيا والدين
قلاون الصالح، خلد الله
سلطانها، وأفاض على كافة
عدله وإحسانه، أنه وقف
جميع المكان: أرضاً وبناء،

كثرة المدارس التي أنشأها سلطين الماليك تظهر شعور التقوى والزلفى إلى الله تعالى

وما هو من حقوقه،
والساحة التي هي أمام
المكان المذكور التي هي
من حقوقه، وذلك بعد أن
كملت عمارة المدرسة؛
وشرط تكملة عمارتها
 وإنشاء المئذنة، فقال بعد
الوصف لها والتحديد ما
معناه، بعد ذكر ألفاظه
وتحرير مقاصده.

أما القبة فإنه وقفها
للقرءاء بها، وشيخ
الحديث والإمام
والمؤذنين، والقومة
والفراشين والخدام،
والمتبردين والمجتازين
بها للصلوات وأداء
الفرائض الواجبات

وسماع القرآن العظيم وحديث النبي صلى
الله عليه وسلم، خلا موضع الضريح الذي
بوسط القبة، فإنه مرصد للدفن؛ وخلي
بينهم وبين القبة المذكورة، وأذن لهم في
الدخول إليها والصلاة فيها على العادة في
مثل ذلك، فصار لا حق له فيها إلا كسائر
الناس أجمعين.

وجعل للناظر أن يرتب بالقبة المذكورة
إماماً يؤم بالمسلمين في الصلوات الخمس،

ويفعل ما يفعله الأئمة
على ما يراه الناظر من
المذاهب ويؤدي إليه
اجتهاده؛ ويصرف له في
كل شهر بالهلال ثمانين
درهماً أو ما يقوم مقامها.
ويرتب فيها شيخاً لإقراء
الحديث النبوي، ينتصب

أنشأ المالिक المكتبات وشجعوا على تأليف الكتب

يراه من التسوية والتفضيل، ويصرف
للسنة الباقيين في كل شهر مائة درهم
وخمسين درهماً على ما يراه من التسوية
والتفضيل.

ويرتب بالقبة من
القومة اثنين
يقومان بخدمة
القبة المذكورة
والإيوان
والساحة التي من
حقوقها، ووقود
مصايبها
والكنس
والتنظيف
والغسل للصحن
المرخّم ودائره،
والسقاية التي
للقبة، وإمطة
الأذى عن ظاهرها
كعادة القومة في
مثل ذلك؛
ويصرف لها في
كل شهر ثمانية

وخمسين درهماً نقرة أو يقوم مقامها، على
ما يراه من التسوية والتفضيل.

ويرتب بها ثلاثة من الفارشين الذين خَبَرُوا
الخدمة، يقومون بفرش القبة المذكورة
ورفع فرشها في الأوقات المعهود ذلك فيها،
يفعلون ما يفعله مثلهم في مثل ذلك؛
ويصرف لهم في كل شهر مائة درهم
وواحداً وستين درهماً نقرة، من ذلك ما
يصرف للحجاج صبيح القطبي أحد
الفراشين مائة درهم نقرة في كل شهر، أو ما
يقوم مقامها من النقود، ما دام حياً مباشراً،
وباقيةا لرفيقه بينهما على ما يراه الناظر

في المكان الذي يعينه الناظر منها في الوقت
الذي يجعله له لمن يقصده ويشتغل عليه
به - أو لسماع الحديث وتصحيحه؛
ويصرف له من ريع الوقف في كل شهر
ثلاثين درهماً
نقرة.

ويرتب بها من
القراء الحافظين
لكتاب الله العزيز
خمسة وعشرون
نقراً، على ما يراه
في ترتيبهم في
النوبة، يقرءون له
ما تيسر لهم
قراءته ليلاً
ونهاراً، في الوقت
الذي يعينه،
ويدعون عقب
قراءتهم للواقف
ووالديه بالرحمة
والرضوان
وجميع المسلمين،
ويصرف لهم في

كل شهر خمسمائة درهم بينهم على ما يراه
من التسوية والتفضيل.

وترتب بالقبة والمدرسة من المؤذنين ثمانية
نفر، يجعل من العدد رئيسين عارفين
بالأوقات يعلنون بالأذان الشرعي في
المئذنة التي تنشأ على الباب، ليلاً ونهاراً،
 وإقامة الصلوات والتسبيح والتذكار في
الأسحار، على ما يراه الناظر متناوبين أو
مجتمعين، وعلى ما يراه من ترتيبهم في
القبة والمدرسة؛ ويصرف لهم في كل شهر
مائتي درهم وثلاثين درهماً نقرة، يصرف
لرئيسين في كل شهر ثمانين درهماً على ما



من التسوية والتفضيل؛ فإن تَوَفَّى صبيح المذكور أو تعذرت مباشرته بسبب من الأسباب، وزال استحقاقه، عوض الناظر مكانه غيره مَنْ شاء، ويصرف له أسوة رفيقيه والباقي منه يعود في مصالح الوقف.

ويرتَّب بها أربعة من الخدَّام من عتقاء الواقف، فإن لم يوجد عتقائه فمن عتقاء والده؛ ويصرف لهم من كل شهر مائة درهم وستين درهماً على ما يراه الناظر من التسوية والتفضيل؛ فإن لم يوجد من عتقائه ولا عتقاء والده، وتعذرت مباشرة الخدَّام بوجه من وجوه التعذرات، رجع ما كان يُصرف إليهم على المصالح المذكورة.

ويرتَّب لها بواباً حافظاً لها، يحتاط في الداخلين والخارجين، ويمنع المرتاب بهم، ومن يكثر الدُّخول لغير حاجة، ولا يترك الباب إلا لعذر، ويستخلف مكانه زمان غيبته؛ ويصرف له في كل شهر عشرين درهماً، أو ما يقوم مقامها؛ ويصرف في ثمن زيت يُستصبح به بالقبة المذكورة وما حوَّته من الأماكن ما يراه، وفي ثمن حُصر من العبدان الأحمر أو الأبيض بحسب ما يراه، وفيما يحتاج إليه من القناديل والبصاقات والسلاسل والأباريق والكيزان، وجميع ما يحتاج إليه ما يراه.

وأما الموضع الذي فيه الأواوين الأربعة، وما به من البيوت السُفلية والعلوية، والباقعة المجاورة للإيوان القبلي، وما حواه من الأبنية، فإنه وَقَفَ ذلك علي المدرسين بها، والمعيدين والفقهاء المتفقهين المشتغلين بها بالعلم الشريف علي مذاهب الأئمة الأربعة، وعلى الإمام والمؤذنين والقومة والبواب بهذه المدرسة وغير ذلك: يسكن بها المدرسون والمعيدين والفقهاء والأئمة في

بيوتها للاشتغال بالعلم الشريف، ويؤدي كل واحد منهم ما يلزمه بهذه المدرسة على العادة في مثلها، وعلى المتردِّين بهذه المدرسة، والمجتازين للصلوات وأداء الفرائض. وخُلِّيَ بين المسلمين وبينها تخلية شرعية، وأذن لهم في الصلاة فيها، وصار حكمها حكم سائر المدارس.

وجعل للناظر أن يرتَّب بالمدرسة المذكورة في كل من أوأوينها الأربعة مدرِّسها علي المذاهب الأربعة، ينتصب المدرس المالكي المذهب بالإيوان القبلي، والمعيدون المالكية والطلبة المالكية في الوقت الذي تُعَيَّن فيه، وهو ما بين طلوع الشمس إلى زوالها، أي وقت رآه المدرس من ذلك لإلقاء فروع مذهبه، وما تيسر له من لقائه من تفسير وأصول وغير ذلك، بحيث يلازم الجلوس على العادة في الوقت المعين، بعد أن يتِمَّن كل واحد من المدرسين وهو وجماعته بقراءة ما تيسر من القرآن الحكيم - إما من رُبعة أو من صدورهم - ويدعو عقيب ذلك للواقف وسائر المدرسين؛ ويُعَيَّن من المعيين المالكية ما يراه الناظر من العدد.

وكذلك ينتصب المدرس الشافعي المذهب بالإيوان البحري، كما حُكِيَ بأعاليه، هو ومن يُعَيَّن الناظر من المعيين والطلبة في الوقت المذكور.

وكذلك ينتصب المدرس الحنفي المذهب، ومن معه من المعيين والطلبة، في الوقت المذكور في الإيوان الشرقي.

وكذلك ينتصب المدرس الحنبلي المذهب، ومن معه من المعيين والطلبة، في الوقت المذكور بالإيوان الغربي.

ويُعَيَّن الناظر لكل مدرِّس منهم من المعيين والطلبة ما يراه من العدد، وينتصب كل معيد مَنْ عَيَّن في جهته لأهل مذهبه

لاستعراض طلبته، ويشرح لمن احتاج الشرح درسهُ، ويصحّح له مستقبله، ويرغب الطلبة في الاشتغال؛ ولا يمنع فقيهاً أو مستفيداً ما يطلب من زيادة تكرار وتّفهم معنًى، ولا يقَدِّم أحداً من الطلبة في غير نوبتها إلا لمصلحة ظاهرة. ويشتغل كلّ واحد من الطلبة بما يختاره من أنواع العلوم الشرعية، ويراه المدرّس له على مذهبه، ويبحث في كل ما أشكل عليه من ذلك ويراجع فيه؛ وأن ينظر المدرس في طلبته، ويحثهم كل وقت على الاشتغال،

ويجعل من يختاره نقيباً عليهم ويقرّر له ما شاء؛ ويُصنّف لكل واحد من المدرسين، وللمعيدين وطلّبه والداعي عنده والنقيب، في كل شهر من شهور الأهلّة ألف درهم نُقْرة، من ذلك ما يختصُّ به المدرّس عن التدريس مائتي درهم، والمعيّدون والطلّبة والداعي والنقيب ما يراه من التسوية والتفضيل.

ويرتّب بالمدرسة المذكورة بالإيوان القبلي بها إماماً يؤمّ بالمسلمين في الصلوات، الخمس على أيّ مذهب كان من المذاهب الأربعة، يقوم بوظيفة الإمامة كجاري عادة المدارس، ويصرف له كلّ شهر ثمانين درهماً. ويرتّب من المؤذنين

حدد لكل مدرس مذهب من المذاهب الفقهية الأربعة أيوان يساعدهم معيّدون ويلتف حوالهم طلاب المذهب من طلوع الشمس إلى زوالها

الثمانية المشار إليهم من يختارهم كما بيّن فيه . ويرتّب بها أربعة من القوّة العارفين بما يلزمهم من ذلك، يقومون بخدمة المدرسة ووقود مصابيحها وكنسها وتنظيفها وتنضيف فسقيّتها ودائرها، وتنظيف السقاية وغسل ما بظاهرها من الأوساخ، كجاري عادة القوّة في مثلها؛ ويصرف لهم في كل شهر مائة درهم بينهم على ما يراه من التسوية والتفضيل.

ويرتّب بها شاهداً لخزانة الكتب ويضبط ما يؤخذ منها للاشتغال بها، بحيث

لا تخرج الكتب من المدرسة؛ ويصرف له في كل شهر ثلاثين درهماً، أو ما يقوم مقامها من النقود.

ويرتّب بالمدرسة بواباً -بالباب الكبير الجامع للقبة والمدرسة- حافظاً محتاطاً في أمور المدرسة والقبة من الدّاخلين إليها والخارجين، مانعاً من يرتاب به ومن يكثر الدخول لغير حاجة، ويلازم حفظ الباب ليلاً ونهاراً، وفَتْحَه وغَلَقَه في الأوقات المعهود ذلك فيها، ولا

ينفصل عن الباب إلا بعذر، فإن اتفق له عذر استخلف في موضعه من يختاره عنه حين غيبته؛ ويصرف له في كل شهر ثلاثين درهماً، أو ما يقوم مقامها من النقود.

لكل إمام ومدرس راتب محدد يصرف له كل شهر من الوقف

ويرتب سواقاً لإدارة الساقية، وإجراء الماء من البئر إلى الصحن أمام إيوان القبة، وإلى الفسقية التي بوسط المدرسة، وإلى الميضة التي بالمدرسة، ويفعل ما جرت العادة في مثل ذلك؛ ويصرف له في كل شهر ثلاثين درهماً. ويصرف في ثمن ثور لإدارة الساقية المذكورة ما يراه ويؤدي إليه اجتهداه، ويصرف في ثمن ما تحتاج إليه الساقية من الخشب والآلات والنجر والحديد ما يراه، ويصرف في ثمن زيت الزيتون أو ما يقوم مقامه مما يستصبح به في المدرسة المذكورة والأواوين

الأربعة والمطلع، ولتكرار الطلبة والميضة ما يراه ويؤدي إليه اجتهداه. ويصرف فيما تحتاج إليه المدرسة المذكورة من الحصر والقناديل والبصاقات الزجاج، والأطباق النحاس والسلاسل والأباريق والجرار، وجميع ما يحتاج إليه بالمدرسة المذكورة ما يراه ويؤدي إليه اجتهداه، ويصرف الناظر في كل سنة في ملء الصهريج من بحر النيل المبارك ثمن ستمائة راوية ما يراه ويؤدي إليه اجتهداه.

وجعل الواقف - أعز الله نصره - النظر في هذا الوقف لعتيقه الطواشي شجاع الدين عنبر بن عبدالله الحر اللالا أيام حياته، ثم من بعده يكون النظر للأمثل من عتقاء الواقف؛ فإن استووا أقرع

هدف الوقف على العلم إلى تنفيذ فريضة التعلم حتى تكون أمة الإسلام في قمة الهرم البشري قوة وكرامة وازدهاراً

بينهم، ثم بعدهم يكون النظر لعتقاء والد الواقف المذكور، الأمثل فالأمثل منهم؛ فإن استوى اثنان فاكثر قدم الأكبر سناً، مع ظهور أهليته لذلك؛ فإن استووا أقرع بينهم. فإن انقضى عتقاؤه والده، أو تعذر نظر أحد منهم، كان النظر في ذلك والولاية عليه لحاكم المسلمين. فإن عاد إمكان نظر من تعذر نظره عاد النظر إليه، فإن تعذر أيضاً كان لحاكم المسلمين، يجري الحال في ذلك أبد الأبد.

وفي ظهر كتاب الوقف المذكور إسهال على قاضي شمس الدين أحمد السروجي الحنفي يتضمن أن الحاكم الأبل النظر إليه يكون مالكي المذهب؛ وشرط الواقف أن لكل من له وظيفة في هذا الوقف المذكور أن يستنيب عنه عند ضرورة لسفر أو مرض، وأن لكل من المدرسين والمعيرين البطالة المعروفة في رجب وشعبان ورمضان وعشر ذي الحجة من كل سنة على جاري العدة في مثل ذلك، وأن

من شرط هذا الواقف أن يتعاهد إثباته عند الحكام، ويحفظ بتواتر الشهادات كل ذلك بعد البداء بعمارة الوقف وممرته وصلاحه وإصلاحه، ومافيه

اشتراط الواقفون شروطاً التزم بها من بعدهم في الإنفاق على العلم

الإفضاء إلى بقاء عينه ودوام منفعته ونمو غلته، ومافضل بعد ذلك يصرف في المصارف المعينة فيه، على أن الناظر فيه يؤجره وماشاء منه مدة سنة فما دونها بأجرة المثل فما فوقها، ولا يزيد على السنة إلا لمصلحة ظاهرة للوقف أو ضرورة لا بد منها، ويؤجره إذ ذاك مدة تفي أجرتها بالضرورة، ويسلك في ذلك الاستغلال الشرعي بحيث لا يُقَرط ولا يُقَرط، ولا يعدل عن السنن المتوسطة. ومهما حصل من ريع الوقف، وهو

ونحن الآن نذكر الوقف المذكور على القبة والمدرسة بمقتضى كتاب الوقف، ونذكر أجرة كل مكان سنة بمقتضى حساب المباشرين، ثم نذكر ما تجدد من الأماكن الجارية في الوقف المذكور، بعد صدور كتاب الوقف المشروح، على ما نقف على ذلك إن شاء الله تعالى.

والأماكن الموقوفة بمقتضى الكتاب، منها ماهو بالقاهرة المحروسة: قيسارية أمير على بخت الشرايشين، ظاهرها وباطنها، سفلها وعلوها وتربيعها، وسائر حقوقها، (و) أجرة هذه القيسارية في كل شهر، على ما استقر إلى آخر ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين وسبعمئة، ألف درهم وستمئة درهم وتسعة وخمسون درهماً؛ والقاعة المجاورة للقيسارية المذكورة، (و) يتوصل إليها من الزقاق الشارع بدرب قيطون، علي يسرة السالك فيه إلى أقصاه، (و) أجرتها في كل شهر ثمانية وأربعون درهماً؛ وجميع الربع المعروف بالدهيشة، بخت باب زويلة فيما بين البابين، ويعرف سفلها بسكن المجرمين والحريرين، (و) ويشتمل على ست حوانيت ومقاعد فيما بين ذلك، وست طباق علوية، (و) أجرة ذلك في كل

شهر مائتا درهم وثمانية وستون درهماً؛ وجميع الحوانيت الثلاثة المجاورة بخت باب الزهومة، وتعرف بسكن العطارين والسيوفي، ويعلو الحوانيت طبقة ليست من الوقف، إنما هي حقوق المسجد المجاور للحوانيت، (و) أجرة هذه الحوانيت في كل شهر خمسة وسبعون درهماً؛ وجميع الخط والحوانيت التي بظاهره وعدتها سبعة، وذلك بالقاهرة بخت باب الخوخة وأجرة ذلك في كل شهر خمسمائة درهم وخمسة وعشرون درهماً؛ وجميع الحمام المعروفة بالفخرية بالقاهرة المحروسة، (و) تجاور المدرسة السيفية والدار الكبرى المعروفة بالسلطان الملك المنصور والد الواقف، ويعرف قديماً بالسيفي، (و) أجرتها في كل شهر أربعمئة درهم وتسعون درهماً؛ وجميع الحمامين المعروفين بالشيخ خضر بظاهر القاهرة بخت بستان بن صيرم والجامع الظاهري، إحدهما لدخول الرجال والآخرى للنساء، أجرتهما في كل شهر ألف درهم وخمسمئة درهم وخمسون درهماً؛ وجميع خان الطعم بظاهر دمشق المحروسة، وهو مشهور معروف، قد وصفه وحدده هكذا: «تضمن كتاب الوقف جميع الخان المذكور»، وليس كذلك، فإن الخان المذكور من جملة الأملاك الموروثة عن السلطان الشهيد الملك المنصور ولده السلطان الواقف قدس الله روحه، والذي كمل للسلطان الملك الناصر خلد الله ملكه من الأملاك المخلفة عند والده السلطان الملك المنصور، مما جره إليه الإرث عن والده السلطان المشار إليه وأخيه الأمير أحمد وأخته جهة عنبر الكمالى، وأخيه الملك الأشرف وبنات أخيه الملك الأشرف وأخته دار مختار الجوهري، وما خصه من نصيب

والدته الذى وهبته له، ولأخيه الملك الأشرف ولأخته دار مختار الجوهري المذكورة، وذلك إلى حين هذا الوقف، سبعة عشر سهما ونصف سهم وثمان ستم سهم وسدس عشر سهم. وهذا الذي لا خلاف فيه ولا نزاع، وهذه الحصّة المذكورة هي التي استقرت في الوقف من هذا الخان، وإطلاق الكاتب في كتاب الوقف جميع الخان غلط وغفلة ممن أملاه، أو ذهول ممن عين ذلك من المباشرين؛ وأجرة هذا الخان بجملته في كل سنة، علي ما استقر إلى آخر سنة اثنتين وعشرين وسبعمئة، تزيد علي سبعين ألف درهم، يخص الوقف منها ما يزيد علي خمسة وأربعين ألف درهم. ثم تجدد بعد كتاب الوقف المشروح الوقف المذكور زيادات، منها المقاعد التي أنشئت بالساحة بباب المدرسة وعدتها ثمانية، ومسطبة ومخزن أجرتهما في كل شهر مائة درهم وأربعون درهما، ومنها ما اشترى من فائض ريع الوقف وألحق به، وهو نصف وربع ثمن طاحون بمصر، أجرة ذلك في كل شهر سبعة وثمانون درهما؛ وإسطبل وطبقة بخان السبيل، أجرة ذلك في كل سنة ستة عشر درهما. وجعل الواقف - خلد الله سلطانه - للناضر في الوقف المذكور أن يصرف لمباشري الوقف واستخراجه وصرفه في مصارفه، ولمباشرى العمارة بالمدرسة والأوقاف والجابى والمعمار، وغير ذلك ما يراه ويؤدي إليه اجتهاده. من عدد المباشرين وتسويتهم وتفضيلهم. وجعل للناضر أيضا أن يصرف من ريع الوقف إذا فضل عن المرتب المعين فيه، في ليالي الجمع والأعياد والمواسم وشهر رمضان، ما يراه في التوسعة عليهم؛ فإن

تعذر الصرف لجهة من الجهات عاد الصرف إلي باقيةا، فإن تعذر صرف ذلك للفقراء والمساكين من المسلمين أينما كانوا وحيثما وجدوا، فإن زال التعذر عاد علي الحكم المذكور، فإن تعذر أيضا كان الفقراء والمساكين كما تقدم، يصرفه الناضر فيهم علي ما يراه من مساواة وتفضيل، وعلي ما يرى صرفه من نقد أو ثوب أو كسوة أو غير ذلك، مما ويؤدي إليه اجتهاده. ولما تم هذا الوقف وكملت عمارة المدرسة، وجلس المدرسون والمعيدون والفقهاء بالمدرسة، وانتصب كل من ذكر في هذا الموقف وظيفته، صرف الناضر للمدرسين خاصة معلومهم الشاهد به كتاب الوقف، وصرف للمعبدین والفقهاء بكل إيوان من الأواوين الأربعة علي مذهبه من جملة ما شرط لهم في كتاب الوقف، ثمانمائة درهم، في كل شهر ثلاثمائة وخمسون درهما، صرف منها لمعبدین لكل منهما في كل شهر ثلاثين درهما، وصرف للطلبة والنقيب والداعي في كل شهر مائتي درهم وسبعين درهما، وقطع من هذا المرتب المعروف لهم في سنة ثلاثة شهور، واستمر ذلك مدة طويلة. واتفق في غضون ذلك أن باشرت ديوان الخصاص السلطاني بالأبواب الشريفة وغيرها، وسكنت بالمدرسة الناصرية، وأطلعت علي متحصل جهات الوقف بالقاهرة وغيرها، ونظرت في ذلك فرائته يفيض علي المصروف في كل سنة جملة كثيرة، ففقت في ذلك قياما أدى إلى أن صرف لهم ذلك مكلا من غير اقتطاع ثلاثة شهور؛ واستمر الأمر علي ذلك إلى أن توفي الطواشي شجاع الدين ناضر الوقف، في سنة أربع وعشرين وسبعمئة، وفوض الأمر إلى الأمير سيف الدين أرغون

الناصرى نائب السلطنة الشريفة، فظهر كتاب الوقف وأذاعه، وحمل الأمر على حكمه على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في موضعه.

ونقل السلطان إلى القبة المباركة ما تحتاج إليه من البسط والشمعدانات الكفت والأطباق النحاس، وغير من الآلات مما جعله في حاصلها. ونقل والدته من مدفنها بالثربة المجاورة لمشهد السيدة نفيسة إلى مدفن هذه القبة، ذلك في سنة ثلاث وسبعمئة، وهي أول من دفن بمشهد القبة. ثم دفن

بعد ذلك ابنة له توفيت صغيرة رحمها الله تعالى. وقد أخذ هذا الفصل حده من الإطالة، فلنذكر خلاف ذلك من الحوادث، والله أعلم. الدراسات الطبية:

أما العلوم الطبية فقد نالت الكثير من اهتمام المسلمين وخاصة في العصر المملوكي حيث أنشئت المستشفيات المتخصصة وأعدت الأدوية وأماكن صرف الأدوية كما كانت المستشفيات تقوم على

فصل الرجال عن النساء وبها جميع الاختصاصات ومن خلال التعرف على ما شيده السلطان المنصور قلاوون من عمائر ومدرسة وبیمارستان ومكتب السبيل سنرى أنهم بلغوا مكانة متقدمة جداً في العلم

نالت العلوم الطبية اهتماماً كبيراً من المسلمين وأنشئت المستشفيات المتخصصة في العصر المملوكي

والطب ومختلف العلوم واليك وصفاً دقيقاً لهذا: ذكر عمارة التربة المنصورية والمدرسة والبيمارستان ومكتب السبيل. قال ولما رأى السلطان الملك المنصور التربة الصالحة أمر بإنشاء تربة ومدرسة وبیمارستان ومكتب سبيل، فاشتريت الدار القطبية وما يجاورها -وهي بين القصرين- من خالص مال السلطان، وعوّض سكان الدار القطبية بالقصر المعروف بقصر الزمرد. وكان انتقال سكان الدار القطبية منها

إلى قصر الزمرد ثاني عشر ربيع الأول من السنة؛ ورُتب الأمير علم الدين الشجاع مشداً على العمارة، فظهر من الاهتمام بالعمارة والاحتفال مالم يُسمع بمثله، فعمرت في أيسر مدة، ونجزت العمارة في شهور سنة ثلاث وثمانين وستمئة. وإذا شاهد الرائي هذه العمارة العظيمة، وسمع أنها عمرت في هذه المدة القريبة، ربما أنكر ذلك.

ولما كملت العمارة وقف السلطان من أملاكه القياسر والرباع، والحوانيت والحمامات، والفنادق والأحكار، وغير ذلك؛ والضياح بالشام، ما يحصل من أجل ذلك وريعه وغلاته في كل شهر جملة

أقيمت المستشفيات على مبدأ فصل الرجال عن النساء

كثيرة. وجعل أكثر ذلك على البيمارستان ثم القبة، ورتب وقف المدرسة إلا أنه يقصر عن كفايتها، ورتب لمكتب السبيل من الوقف بالشام ما يكفيه.

ولما تكامل ذلك ركب السلطان وشاهده، وجلس بالبيمارستان ومعه الأمراء والقضاة والعلماء. فأخبرني بعض من شهد السلطان وشهد عليه، أنه استدعى قدحاً من الشراب فشربه، وقال: «قد وقفت هذا على مثلي فمن دوني». وأوقفه السلطان على الملك والمملوك، والكبير والصغير، والحر والعبد، والذكر والأنثى؛ وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة، ومن مات جهز وكفن ودفن.

ورتب فيه الحكماء الطبائية، والجراحية، والمجبرين، لمعالجة الرمدى والمرضى والمجرحين والمكسورين من الرجال والنساء. ورتب به الفراشين والفراشات والقومة، لخدمة المرضى وإصلاح أماكنهم وتنظيفها، وغسل ثيابهم وخدمتهم في الحمام؛ وقرر لهم على ذلك الجامكيات الواقعة.

وعملت التخوت والفرش والطاريج، والأنطاع والمخدات واللحف والملاوات، لكل مريض فرش كامل. وأفرد لكل طائفة من المرضى أمكنة تختص بهم: فجعلت الأواوين الأربعة المتقابلة للمرضى بالحميات وغيرها، وجعلت قاعة للرمدى، وقاعة للجرحاء، وقاعة لمن أفرط به الإسهال، وقاعة للنساء، ومكان حسن للممرورين من الرجال، ومثله للنساء. والمياه تجري في أكثر هذه الأماكن.

وأفردت أماكن لطبخ الطعام والأشربة والأدوية والمعاجين، وتركيب الأكحال والشيافات والسفوفات، وعمل المراهم

والأدهان، وتركيب الدرياقات، وأماكن لحواصل العقاقير وغيرها من هذه الأصناف المذكورة، ومكان يُفَرَّق منه الشراب وغير ذلك من جميع ما يحتاج إليه. ورتب فيه مكان يجلس فيه رئيس الأطباء، لإلقاء درس طب ينتفع به الطلبة. ولم يحصر السلطان - أثابه الله - هذا المكان المبارك بعده في المرضى، يقف عندها المباشر ويمنع من عداها، بل جعله سبيلاً لكل من يصل إليه في سائر الأوقات، من غني وفقير. ولم يقتصر أيضاً فيه على من يقيم به للمرضى، بل يرتب لمن يطلب وهو في منزله ما يحتاج إليه من الأشربة والأغذية والأدوية، حتى أن هؤلاء زادوا في وقت من الأوقات على مائتين، غير من هو مقيم بالبيمارستان.

ولقد باشرفته في شوال سنة ثلاث وسبعمائة، وإلى آخر رمضان سنة سبع وسبعمائة، فكان يصرف منه في بعض الأيام من الشراب المطبوخ خاصة ما يزيد على خمسة قناطير بالمصري في اليوم الواحد، للمرتبين والطوارئ، غير السكر والمطابخ من الأدوية، وغير ذلك من الأغذية والأدهان والدرياقات وغيرها.

ورتب في البيمارستان من المباشرين والأمناء من يقوم بوظائفه، وابتياح ما يحتاج إليه من الأصناف، وضبط ما يدخل إلى المكان وما يخرج منه خاصة، من غير أن يكون لهم تعلق في استخراج الأموال، وإنما يبتاعون الأصناف ويحيلون بثمنها على ديوان صندوق المستخرج، ويكتبون في كل شهر عمل استحقاق لسائر أبواب الجامكيات والجرايات من سائر أبواب الوظائف والمباشرين، يكتبه العامل ويكتب عليه الشهود، ويامر الناظر بصرفه، ويأخذ

ديوان الصندوق، ويصرف على حكمه. وهذه الطائفة من المباشرين بالبيمارستان هم مباشرو الإدارة.

وأما مباشرو الصندوق والرباع، فإليهم يرجع تحرير جهات الأوقاف في الخلق والسكون والمعطل، واستخراج الأموال ومحاسبات المستأجرين، وصرف الأموال بمقتضى حوالة مباشري الإدارة، ومباشرة العمارة، وعمل الاستحقاق، لا يتصرفون في غير ذلك، كما لا يتصرف مباشرو الإدارة في صرف الأموال إلا حوالة بأوراقهم.

وأما العمارة فلها مباشرون يتفردون بها : من ابتياع الأصناف واستعمال الصناع وممرمة الأوقاف، وغير ذلك مما يدخل في وظيفتهم، وهم يحيلون بثمن الأصناف على الصندوق، كما يفعل في الإدارة، وينقل عليهم من الصندوق من المال ما يصرفونه لأرباب الأجر خاصة، ويكتبون في كل شهر عمل استحقاق بثمن الأصناف وأرباب الأجر، ويخصمونه بما أحوالوا به على الصندوق، وما وصل إليهم من المال، ويسوقونه إلى قابض أو متأخر، وترفع كل طائفة من هؤلاء المباشرين حساباناتهم، مياومة ومشاهرة ومساناة، إلى الناظر والمستوفى. هذا ما بالبيمارستان.

وأما القبة المباركة المنصورية وهي التربة، فإنه رتب فيها خمسون مقرباً يقرءون كتاب الله تعالى ليلاً ونهاراً بالثوب، وجعل لكل منهم في كل شهر عشرون درهماً. ورتب بها إمام على مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وله في كل شهر ثمانون درهماً من أصل الوقف، وفي كل سنة في ليلة ختم صلاة قيام رمضان خلعة من خزانة السلطان كاملة مسخية مقتدرة. ورتب بها رئيس ومؤذنون يعلنون الأذان بالمئذنة

الكبرى، ويقيمون الصلاة، ويبلغون خلف الإمام، وهم سبعة نفر: الرئيس وله في كل شهر أربعون درهماً، والمؤذنون ستة لكل منهم في كل شهر ثلاثون درهماً. ورتب بها درس تفسير لكتاب الله تعالى، فيه درس يلقيه (مدرس)، رتب له في كل شهر أربعون درهماً، وطلبة عدتهم ثلاثون، لهم في كل شهر ثلاثمائة درهم، ودرس حديث يذكر فيه حديث رسول الله ﷺ، له مدرس ومعيد وطلبة، لهم في كل شهر نظير ما لدرس التفسير ومعيده وطلبته، وزيادة على ذلك قارئ يقرأ الحديث بين يدي المدرس في أوقات الدروس، ويقرأ ميعاداً للعوام بين يديه أيضاً في صبيحة كل يوم أربعاء، رتب له في كل شهر ثلاثون درهماً. ورتب لخازن كتبها في كل شهر أربعون درهماً، وخزانة كتبها من الختمات الشريفة والربعات المنسوبة الخط، وكتب التفسير والحديث والفقه، واللغة والطب والأدبيات ودواوين الشعراء، شيء كثير ورتب بها الخدام اللازمة يقيمون بالقبة لحفظ حواصلها ومنع من يعبر إليها في غير أوقات الصلوات، وهم ستة، لكل منهم في كل شهر خمسون درهماً، وغير هؤلاء من القومة والفراشين والبوابين.

وأما المدرسة المباركة المنصورية، فإنه رتب بها إمام شافعية المذهب، له في كل شهر ثمانون درهماً، ورئيس ومؤذنون يعلنون بالأذان بالمأذنة الكبرى المذكورة، هم ومؤذنو القبة بالتربة، وهم رئيس وأربعة مؤذنون، لهم في كل شهر أربعون درهماً. ورتب بها دروس للمذاهب الأربعة: الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة، لكل طائفة مدرس له في كل شهر مائتا درهم، وثلاثة معيدين لكل منهم خمسة

جليلة تحتوي على مجموعة كبيرة من المراجع في مختلف العلوم كذلك حرص السلطان المنصور قلاوون على تزويد مكتبة المدرسة المنصورية التي أنشأها باكتير في كتب التفسير والحديث والفقه واللغة والطب والأدبيات ودواوين الشعراء كذلك وجد بمدرسة الناصر محمد ابن قلاوون مكتبة جليلة وكذلك الحال في مدارس الظاهر برقوق والمؤيد شيخ والأشرف قايتباي والأشرف قانصوه الغوري، هذا بالإضافة إلى المكتبات التي ألفت بالخانات والجوامع وذلك بهدف تعميم الفائدة وتيسيراً على طلبة العلم.

وفي جميع الحالات قام بالأشراف على خزانة الكتب خازن الكتب ومهمته ترتيب الكتب وتنظيمها وحفظها وحجبها وترميمها بين حين وآخر فضلاً عن إرشاد القراء إلى أماكن ما يلزمهم من مراجع لذلك حرصت الدولة على اختيار الشخص المناسب للعمل بهذه المكتبات وعادة كان يختار لها فقيهاً أو عالماً يراعى فيه سعة العلم والأمانة.

وكانت عملية تزويد المكتبات بالكتب والمراجع مستمرة عن طريق الهدايا والهبات وإما عن طريق النسخ وإما عن طريق الشراء وكانت إعارة الكتب خارج المكتبة نادرة وذلك حرصاً على الكتب وكانت الاستعارة من الكتب اقتصر على الإطلاع الداخلي وفق شروط خاصة تضمن المحافظة على الكتب وعدم استهلاكها.

وهكذا نرى أن المسلمين فهموا دينهم على الوجه الصحيح وطلبوا العلم ولو في الصين وأقاموا المدارس وشجعوا طلبة العلم وصولاً لبناء أمة الإسلام التي تعلو ولا يُعلى عليها بحيث تكون أولاً في كل شيء

وسبعون درهماً، وخمسون طالباً، لجميعهم في كل شهر سبعمائة وخمسون درهماً، وغير هؤلاء من القومة والغراشين وبواب (واحد).

وأما مكتب السبيل، فإنه رُتب فيه فقيهان يعلمان (من كان) صغيراً من أيتام المسلمين كتاب الله تعالى، ورتب لهما جامكية في كل شهر وجراية في كل يوم، وهي لكل منهما في كل شهر ثلاثون درهماً، وفي كل يوم من الخبز ثلاثة أرطال، وكسوة في الشتاء، وكسوة في الصيف، ورتب للأيتام لكل منهم في كل يوم رطلان خبزاً، وكسوة في الشتاء، وكسوة في الصيف.

وتنوع السلطان أجزل الله ثوابه في وجوه البر والقربات، وهذه الجهات المباركة المبرورة باقية مستمرة، يزداد وقفها وينمو لحسن نية واقفها، قدس الله روحه، ونور ضريحه.

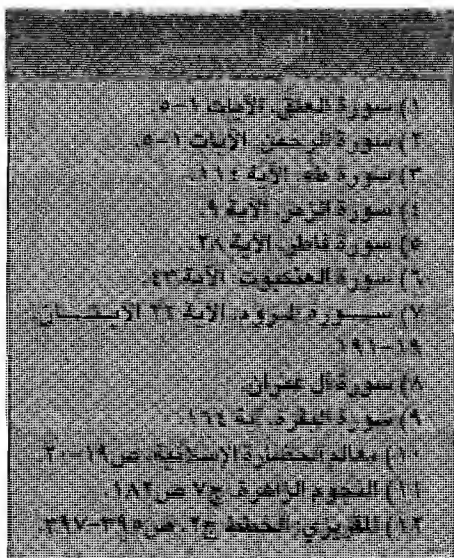
المكتبات في العصر المملوكي :

تعتبر الكتب والمكتبات الركن الأول للنشاط العلمي في أي زمان ومكان، لذلك لا عجب أن الممالك اهتموا بإنشاء المكتبات وشجعوا على تأليف الكتب، وكان سلاطين الممالك أنفسهم في مقدمة من قدر أهمية الكتب فاحتفظوا في قلعة الجبل بالقاهرة بخزانة كتب جليلة القدر حوت مجموعة ضخمة من الكتب الدينية والعلمية، وقد ظلت هذه المكتبة عامرة بالكتب محتفظة بأهميتها رغم الحريق الذي تعرضت له سنة ١٢٩٢م علي عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون الألفي.

أما مكتبات المدارس والمساجد والجوامع في عصر الدولة الإسلامية المملوكية فكانت على درجة عالية من الإعداد والتنظيم؛ وعندما أنشأ السلطان / الظاهر بيبرس المدرسة / الظاهرية الحق بها خزانة كتب

المهمندارية، مدرسة الجاي، مدرسة أم السلطان، المدرسة الايتمشية، المدرسة المجدية الخيلية، المدرسة الناصرية بالقرافة، المدرسة المسلمية، مدرسة اينال، مدرسة الأمير جمال الدين الاستادار، المدرسة الصرغتمشية.

وذكر المقريري في خطه أن عدد المدارس المذكورة في مدينة القاهرة في زيادة وأن ١٠٦٠ جامع و٦٣ مسجداً تقوم بدور المدرسة في التعليم وكذلك ٢٧ زاوية و١٣ رباطا و٢٣ خانقاة تسهم في التعليم وذلك احتساباً للثواب من الله عز وجل وتنفيذاً لفريضة التعلم وطلب العلم لكي تكون أمة الإسلام في قمة الهرم البشري من حيث القوة والكرامة والتقدم والإزدهار يأمر ولا يؤمرون ويخيفون ولا يخافون سادة وليسوا عبيداً. لأن الإسلام يعني الحرية والكرامة والقوة والعدالة والمساواة والتقدم الحضاري ولن تصلح دنيا المسلمين إلا بالإسلام.



وليس ثانياً أو ثالثاً ومن دلائل هذا الاهتمام بالعلم والعلماء ما ذكر المقريري من عدد من المدارس في القاهرة في العصر المملوكي هي : المدرسة الناصرية، المدرسة القمحية، مدرسة يازكوك، مدرسة ابن الارسوقي، مدرسة منازل العز، مدرسة العادل، مدرسة ابن رشيق، المدرسة الفائزية، المدرسة القطبية، المدرسة السيوفية، المدرسة الفاضلية، المدرسة الازكشية، المدرسة الفخرية، المدرسة السيفية، المدرسة العاشورية، المدرسة القطبية، المدرسة الخروبية، مدرسة المحلي، المدرسة الفارقانية، المدرسة المذهبية، المدرسة الخروبية، المدرسة البهائية، المدرسة الصاحبية، المدرسة الشريفة، المدرسة الصالحة، قبة الصالح، المدرسة الكاملة، المدرسة الصيرمية، المدرسة المسروبية، المدرسة القوصية، مدرسة بحارة الديلم، المدرسة الظاهرية، المدرسة المنصورية، القبة المنصورية، المدرسة الناصرية، المدرسة الحجازية، المدرسة الطيبرسية، المدرسة الاقبغاوية، المدرسة الحسامية، المدرسة المنكوتمرية، المدرسة القراسنقرية، المدرسة الغزنوية، المدرسة البوبكرية، المدرسة البقرية، المدرسة القطبية، مدرسة ابن المغربي، المدرسة البيدرية، المدرسة البديرية، المدرسة الملكية، المدرسة الجمالية، المدرسة الفارسية، المدرسة السابقة، المدرسة القيسرانية، المدرسة الزمامية، المدرسة الصغيرة، مدرسة تربة أم الصالح، مدرسة ابن عرام، المدرسة المحمودية، المدرسة المذهبية، المدرسة السعدية، المدرسة الطفجية، المدرسة الجاولية، المدرسة الفارقانية، المدرسة البشيرية، المدرسة